الديمقراطية التوافقية

كنت أمام شاشة التلفاز حين عقدت جلسة الاعتصام الأولى للمجلس النيابي ضدّ الحصار الإسرائيلي على لبنان والتي تمّ نقلها عبر كل الفضائيات المحليّة. مشهد مهيب لقاعة غاصّة ب"ممثّلي" الشّعب اللّبناني العظيم، مشهد تشكل أمامي غابة من الذّكور تزيّنها ست زهرات مبعثرة من دون انتظام محدّد. جمعت الزّهرات في باقة أنيقة وجعلتها تتوسّط الغابة. لكن ما أن اكتمل المشهد من جديد حتّى خطر ببالي تلوين الزّهرات وفقاً لمعايير الديمقراطية اللّبنانيّة التي أسمع من الجميع أنّها توافقيّة، وهنا وقعت المشكلة. هل يعقل لزهرة أن تكون من دون لون؟

تسمّر نظري على هذه الباقة السريالية لكنها الواقعية جدّاً وحاولت دراستها وتحليلها علّني أتمكّن من إيجاد اللّون المناسب لكل زهرة فيها. كلّنا يعلم أنّ الدّراسة والتّحليل لا يستقيمان إلاّ باستعمال أدوات معيّنة، ولا أدخل الآن بمنهج تحديدها، وأنا لا أملك من تلك الأدوات إلاّ القلم والرّيشة، أي الكلمة واللّون فحتّم عليّ أن ألوّن الزّهرات وفقاً لما تمليه الكلمة. ولا أخفي على القارئ أنّ محاولتي هذه كانت البحث عن معادلة تتوافق مع روحية الديمقراطية التي تقضي بتقسيم أعضاء البرلمان اللّبناني عددياً وبالتساوي بين المسلمين والمسيحيّين بحسب اتّفاق الطّائف من دون الدّخول في تفاصيل التّقسيمات التفصيليّة الأخرى التي ستثقل علي البحث وتدفعني إلى التكاسل وعدم المتابعة. حاولت إذاً البحث عن المناصفة، في موضوع ما، بين زهرات البرلمان لكي أضع على كل ثلاث منها اللّون المناسب فيستقيم الوضع وتنتعش الديمقراطيّة وتتحقّق المساواة التوافقية المركّبة. وسأروي ما خطر ببالي من دون ترتيب مقصود أو ممنهج. وما خطر ببالي هو:

١- بدأت الجلسة التي كانت فصولها تتتالى أمامي على شاشة التلفاز والتي كانت مخصّصة لأن يدلي كلٌّ بدلوه حول الوضع الرّاهن. ماذا رأيت؟ هنا لا أريد الدّخول في تأثير الانتماء الدّيني على السّياسة أو العكس عند ممثّلي الشّعب اللّبناني وأكتفي بالقول إنّني لم أوفّق بإيجاد التوازن العددي الذي أبحث عنه إذ وجدت إجماعاً ليس له مثيل بين الزّهرات ممّا أحبط لدي محاولة البحث إذ خرجن كلّهن بلون واحد ونحن في لبنان ضدّ اللّون الواحد وأحادية الرّأي وضدّ العولمة لأنّها آتية من قطب واحد في هذا العالم.

٢- لكن ما سبق ولفت نظري إلى الانتماء الدّيني لزهرات المجلس، وهنا أيضاً سقطت المعادلة العادلة وتعثّرت الدّيمقراطية إذ أن تلك الزّهرات توزعن على الديانتين الكبيرتين في لبنان، لكن توزّعهن أتى بأرجحية كبيرة لصالح المسيحيات مع احتفاظ المسلمات بالثلث المعطّل، لكن التّوزيع هذا أسقط ديمقراطية اللّونين التي أبحث عنها وسقطت معه المحاولة في هذا الاتّجاه.

٣- الفشل السّابق دفعني إلى البحث في أشكال الزّهرات ونوعياتها علّني أتمكّن من تحقيق القسمة العادلة. لكن حين استعرضتهن أمامي وجدتهن كلهن أنيقات جميلات على الرّغم من بعض التمايزات، لكنّها تمايزات تدخل في باب "النيصات" (nuances) وليس في الأساسيات ممّا يجعل الباقة من لون واحد متدرّج وممّا يسقط المحاولة من جديد. مع العلم أنّني سمعت بعض التّعليقات الخبيثة التي صنّفت زهرات البرلمان بين أوركيده وزنبق وقرنفل و... لكنّها تعليقات، كما قلت، خبيثة لا أتوقّف عندها.

٤- انتقلت من الشكل الخارجي إلى الدّاخل، إلى المواقف. هنا وجدت أنّ الرّؤية غير واضحة والسّماء ملبّدة بالغيوم بحيث أنّنا أو أنّني عجزت عن معرفة موقف كل زهرة منهن مثلاً من القرار ١٥٥٩ أو المقاومة أو... لعلهن، هنا ذبن في الجو العام الغامض حيث المضمر غير المعلن وحيث المصرح به غير المسكوت عنه وحيث المنطوق به يتحمّل تأويلات عديدة. هنا أيضاً فقدت الرّيشة التّوازن ولم تستطع تلوين أي زهرة أو أنّها كادت تسقط ألواناً مختلفة على الزهرة الواحدة فتصبح الزّهرات اصطناعية ونحن في الواقع أمام زهرات طبيعيّات جدّاً. وإذا تحوّلنا إلى موقفهن من سوريا فنجد أن خمساً منهم من أتباع "أي يلاّ سوريا طلعي برّا" وواحدة قالت "إلى اللّقاء سوريا"؛ ممّا يفقد التّوزيع الدّيمقراطي توازنه ليسقط في سلّة الغالب والمغلوب عددياً وذلك على الرّغم من أنّهن كلّهن من بنات مظاهرة ١٤ آذار. هنا انتبهت إلى أنّ مظاهرة ٨ آذار لم تنبت أي زهرة، لكن سرعان ما عزيت نفسي لأنّه، والحمد لله، توحدت المظاهرتان وتلاحقتا وأنجبتا مولودهما الجديد القديم رئيساً لمجلس كل النّواب. لكن الولادة أتت بسرعة ممّا دفع البعض إلى القول همساً إنّ الزّواج هذا قد تمّ حتماً قبل إعلانه بكثير.

٥- ما هي مكوّنات التربية التي استنبتت فيها زهرات المجلس النيابي؟ إنّها تربة منوّعة وخصبة تحتوي على أسمد مختلفة أهمّها الدم أي الشهادة والسّجن والمنفى بحيث أتى توزيع الزهرات الجميلات على الشّكل التالي: ثلاث منهن استنبتن من تربة الشهادة، واحدة من تربة المنفى وواحدة من تربة السّجن. يبقى واحدة وهي استنبتت استطراداً وكجملة اعتراضية، من تربة النّحيب على الشهادة. وهنا وجدت الريشة نفسها أمام أربعة ألوان حيث لا مجال للعدالة العددية وللديمقراطية والعيش المشترك وال... لكن المراقب يستطيع، إن صفت نيّته، أن يوحّد كل هذه الألوان لأن زهرات المجلس كلّهن تفتحن تحت الخيم وذلك على الرّغم من الخلاف الذي وقع بين رافعي تلك الخيم في آخر المشوار. لكن التوحيد كما التنوّع غير الموزون يُفشل البحث عن الديمقراطية المنشودة.

٦- ننتقل إلى الشعارات التي أطلقت في مناخ الانتخابات التي أتت بهذه الزّهرات. من أهم هذه الشّعارات هو أن من لا ينتخب "معك" هو قاتل أو من أنصار القتلة، فما هو توزع الزهرات بحسب هذا الشعار؟ التّصويت الشّعبي أفرز خمس زهرات "معك" وواحدة ضد، وهكذا طغى لون على الآخر وسقطت من جديد الديمقراطية وهذا أمر مرفوض في دولة كلبنان الذي يشكّل النموذج الحي للتعايش والوفاق والمساواة.

٧- أمّا العائلة والنّسب فهما من مكوّنات كل زهرات الباقة التي أهداها المجلس الكريم لنفسه. كلهن ينتمين إلى عائلات كريمة، فاثنتان منهن زوجتان لرئيسي جمهورية سابقين وواحدة شقيقة رئيس وزراء سابق وواحدة ابنة نائب سابق وواحدة زوجة قائد سابق وعائد. أمّا السّادسة فهي بنت عائلة عريقة ومقرّبة من رئيس وزراء سابق. نرى هنا أيضاً أنّ الأمر تعقّد أمام الرّيشة لأنّها وجدت نفسها أمام ما يشبه اللّون الواحد، فسقطت المعادلة المنشودة.

٨- ربّما استطعنا أن ننعش الديمقراطية المحبطة حتى الآن، إذا نظرنا في التوزيع المناطقي لهذه الزّهرات. لكن واقع الحال يظهر لنا أنّ اثنتين منهن اسنبتتا في بيروت ولو أنّ إحداهن كانت جائزة ترضية، وواحدة استنبتت في جبل لبنان وواحدة في الجنوب واثنتين في الشمال. أين واحدة البقاع؟ الجواب جاهز: البقاع وبخاصّة الشمال منه، هو منطقة متخلّفة ومهملة إنمائياً ومعيشياً و... والزّهور العطرة لا تنبت في السّهل المهملة المتخلّفة، فلكي يرقّ ملمس الزّهرة ويفوح عطرها، عليها أن تنبت في حدائق القصور المترفة. لكن وعلى الرّغم من كل الأقاويل "المغرضة" نرى أنّ الديمقراطية تعثّرت أيضاً في هذا المجال.

٩- أمّا العطر والملمس فلنبحث إن كانا يشكّلان قاعدةً للتوزيع الدّيمقراطي بين زهرات البرلمان. لكن هنا أقرّ بعجزي عن التّحليل لأنّني لا أعرف عطر وملمس كل زهرة من زهرات برلماننا الست ولا أعرفهن إلاّ عبر الصورة والصوت من على شاشات الفضائيات. وهي معرفة قائمة على الأدوات المعرفية الذكورية السّائدة حتى الآن ولأن الأدوات الإنسوية لم تجد بعد طريقها إلى التداول. وهذا يتطلّب شرحاً طويلاً يستطيع القارئ أن يتجاهله، أو، إذا كان حشرياً، أن يعود إلى دراسة حول الموضوع نشرتها كملحق لإحدى رواياتي. المهم إنّي أقرّ بفشلي هنا، لكن العارفين بخفايا الأمور يصرحون أن كلّ زهرات البرلمان، ما عدا واحدة، لهن ملمس الحرير وعطر الخليج السّاحران. أمّا الأخيرة فعطرها أتت به ربّما من المنطقة الحرّة في أحد مطارات باريس. لكنّني مع العطور الجميلة مهما تنوّعت مصادرها. وإذا ما تابعنا الموضوع من حيث الصّورة والصّوت فنجد أنّه أصبح بإمكان البرلمان أن ينظّم مباراة لانتخاب ملكة جمال البرلمان ٢٠٠٥_ ٢٠٠٦ مع العلم أنّ الأمر محسوم سلفاً، لكن ربّما سمحت لنا مثل هذه المباراة أن ننصب الديمقراطية على

قدميها لأنّ المتباريات سينقسمن ثلاثاً بثلاث أي ملكة الجمال والوصيفتان من جهة والثلاث الباقيات من جهة أخرى فتتحقق العدالة العددية وتستطيع ريشة المراقب أن تلون الزهرات بلونين واضحين يمثّلان التوافقية والعيش المشترك. أمّا بالنسبة للصوت فالسّامع يدرك جيّداً أنّ هناك أصواتاً تخدش الآذان وأخرى تريحها. لكن هنا أيضاً القسمة ستبقى غير عادلة لأن إحدى الزّهرات لم تسمعنا صوتها حتى الآن ولا يجوز الحكم قبل اكتمال عناصره.

١٠- وحيث أنّنا في مجال الصّوت والنّطق، خطرت ببالي مقولة الفجور وهي مقولة ملصقة بالنّساء عادة ولا أقصد بالفجور إلاّ ما يتعلّق منه بنبرة الصوت وارتفاعه وما شابه ذلك وليس الفجور إلاّ أخلاقي. في هذا المجال المحدد أظهرت لنا المرحلة الأخيرة زهرتين فاجرتين، إحداهن ما زالت صورتها عالقة في ذاكرة المراقب وهي تقفز في ساحة الشّهداء وهي تصرخ بأعلى صوتها: "فرطوا فرطوا"، بينما الثانية وهي من الزهرات القديمة والتي لم نسمع صوتها إطلاقاً إلاّ في المرحلة الأخيرة وهي تنتحب على الشّهيد الكبير ممّا دفع البعض إلى القول إن نحيبها كاذب لأنّه ظهر في بعض الأحيان وكأنّه يفوق نحيب الشقيقة المفجوعة فعلاً. إذاً نحن أمام توزيع عددي غير موزون يسقط مجدّداً محاولتنا إرساء الدّيمقراطية على أسس سليمة.

١١- وعلى ذكر القديم والجديد، خطر ببالي أن أنظر إلى الزّهرات من هذه الزّاوية وما أن خطرت ببالي هذه الزّاوية حتّى شعرت أنّني أقترب من الحلّ؛ إذ أن زهرات البرلمان منقسمات بالتساوي بين جديدات وقديمات. لقد صحّ التّوازن وتحقّقت الديمقراطية. لكن سرعان ما تبادر إلى ذهني البحث في مفهومي "القديم والجديد وتبيّن لي أنّ القديم يتميّز بالتّراكم، فطرحت السّؤال: ماذا راكم السّابقات من أفعال أو مواقف أو... يجعل منهن فعلاً موجودات قبل الزّمن الرّاهن؟ لم أجد إلاّ تراكم السّنين فقط وهو تراكم تأنف منه الإنسى وترفض أن تصنّف على أساسه ووجدت نفسي من جديد أمام البحث عن الحل.

١٢- انتبهت أنّني أهملت حتى البحث في موضوع الإنسى وقلت لنفسي ربّما وجدت ضالتي في محاولة النّظر في نشاط برلمانيتنا في ميدان حقوق بنات جنسهن. ليتني أجد المناصفة هنا كي أقفل الموضوع وأستنتج أن شرط وصول النّساء إلى البرلمان هو أن يكون عددهن منقسماً بالتّساوي بين من يردن أن تنال الإنسى حقوقها وبين من لا يردن ذلك، وهو شرط يوافق عليه الذّكر حتماً لأنّ المعادلة تلك توصلنا إلى لجم كل مناداة بحقوق الإنسى. لكن حين استعرضت واقع الحال فوجئت بفراغ مخيف هو صمت مدوّي، لكنّي عزيت نفسي بكل تفاؤل وفكرت أنّ هؤلاء الزّهرات الكريمات ربّما كنّ لا يهتممن بهذا الموضوع لأنّه موضوع كثر "علكه" وهن مع المواضيع الأكثر أهمية والأكثر عمقاً، فموضوع حقوق الإنسى هو من

اختصاص الجمعيات النسائية وتوابعها بينما هنّ نائبات عن الأمة، كل الأمة ولا يجوز لهنّ الاهتمام بنصفها فقط. هذا التّبرير الموضوعي جدّاً دفعني إلى البحث في اهتمامات "ممثلاتنا" الكبيرة والتي تطال كل الأمة من دون تفريط بأي جزء منها. هنا أعترف أنّني لم أكتفِ بالبحث، بل لجأت إلى السّؤال، سؤال العارفين بأمور الكتابة والنّشر وما إلى ذلك ولم أعثر إلاّ على بعض التّصريحات الصّحافية الظرفية ونصوص بعض الكلمات التي أجمع كل العارفين أنّها ليست من تأليفهن، بل كتبت وشكلت أيضاً لهن من قبل المساعدين والمستشارين والمقربين جدّا من ممثلات الأمّة ولأنّهم مقرّبون جدّاً فهم يعلمون تماماً ما تريد إحداهن قوله أو كتابته، ولهذا السّبب يأتي قولهم مطابقاً كليّاً لقولها لو أرادت هي القول أو الكتابة. (يبدو أنّ عند العرب الأميّة ليست عيباً للنّساء). لكن ما يهمّنا من كل ما تقدّم ذكره ولكي لا نخرج عن الموضوع، هو أنّني لم أجد بعد المقياس الذي على أساسه أستطيع بناء المناصفة التوافقية.

١٣- الفشل السّابق دفعني إلى إقفال الموضوع وأنا محبطة من عدم قدرتي على العثور عمّا ترتكز عليه الديمقراطية التي أوصلت نائبتنا إلى المجلس النيابي. لكن ما كدت أقفل الموضوع حتى دخلت علي إحدى جاراتي وهي جارة قلّما أفرح بزيارتها، لأنّها إن تميّزت بشيء فبالسذاجة إن لم نقل بالهبل. لم أرحّب بها كعادتي، لكنّها بادرت إلى القول بلهجتها الكسروانية الصّحيحة: "ما شفتش التلفزيون؟" وحين أجبتها بنعم تابعت: "ما اشتلأتيش عشي؟" هززت برأسي نفياً فتابعت: "كنت مفكّرة إنو النايبات خمسة، طلعو ستة تلاته منهن شقر وتلاته سمر." حين سمعت قولها هزئت من نفسي واقتربت منها وقبلتها وأنا أردّد بصمت :"خذوا الحقيقة في لبنان من أفواه الهبلان." لقد التقطت الجارة الساذجة وبكل بساطة وسرعة ما أمضيت وقتاً طويلاً في البحث عنه من دون جدوى. أمام انجلاء الحقيقة الفاقعة هذه رأيت الرّيشة تنغمس في اللّون الأبيض وتلوّن ثلاث زهرات من الباقة البرلمانية ثم انتقلت إلى اللّون الأحمر وطلت به الثلاث الباقيات، تردّدت قليلاً ثم انغمست في اللّون الأخضر ولونت به وريقات الزّهرات الستّ وإذ بالعلم اللّبناني يرفرف أمامي بكل كبر وعزّة وسمعتني أهتف بصوت مرتفع: "عاشت الديمقراطية وعاش لبنان".

هامش: استعمل كلمة "إنسى" بدل "امرأة" وهو ما بينت أسبابه في دراسة منشورة سابقاً.